نظرة ابن خلدون إلى الشعر

سُوف عبید

تبدو ثنائية القديم والجديد من أهم خصائص تاريخ الشعر العربي على مدى أغلب عصوره حيث مثلت تلك الجدلية تعبيراً واضحاً عما كان يطرأ على المجتمعات العربية من تغييرات وتطورات سواء بسبب التفاعلات الداخلية أو من جرّاء العوامل الخارجية

و لقد كان الأدب في صدارة التعبيرات عن تلك الإرهاصات المختلفة فبرزت بصفة أوضح في مجال الشعر حتى أن ابن خلدون قد سجل التأثير الاجتماعي على اللغة و فنون الأدب في - المقدمة -

ففي الفصل الخاص بعلوم اللسان رأى أنّ اللغة تتأثر بما جاورها من اللغات ذلك أن عربية قريش ليست هي ذاتها عربية مُضر ولاحظ كذلك أن لغة (أي لهجة) أهل المشرق تختلف بعض الشيء عن لغة أهل المغرب وكذلك لغة أهل المغرب تختلف عن أهل الأندلس لأنّ أولئك - كما أورد - خالطهم الفرس والعجم وهؤلاء خالطهم البربر والإفرنج

و لابن خلدون فصل آخر على قدر كبير من الأهمية ألا وهو فصل - في تفسير الدُّوق - الذي يحصل عند حذق أساليب العرب بالتعلم والممارسة والمدارسة والإعتياد والتكرار بدون النظر إلى أصل المرء كما حصل لدى سيبويه والزمخشري اللذين صارا من أئمة العربية رغم عجمتهما

و عندما يستعرض تعريف الشعر من لدن العروضيين في قولهم (إنّهُ الكلام الموزون المقوّى) فإنه لا يطمئن إلى هذا التعريف بل يدعو إلى ضرورة النظر في الشعر من جهات أخرى مثل البلاغة والوزن والاستعارة والأوصاف وغيرها

و يخلص إلى تعريف أوسع و أشمل يتمثل في قوله : - إن الشعر هو

الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف المفصّل بأجزاء متّفقة في الوزن

والرّوي -

إذن قد تجاوز ابن خلدون مقولة (الموزون المقفى) في الشّعْر وإقترح تعريفاً بديلاً شاملاً يؤكد فيه على الأسلوب والصّيغة من دون أن يُهمل أهمية المبني

والمعنى ثم يطبق نظريته تلك على أعلام الشعر العربي فيخلص إلى أن الكثير منه ليس إلا نظماً ولم يستثن حتى المتنبي والمعري وإضافة إلى هذا الرّأي الجريء والمخالف المتحدّي للرأي السائد على مدى العصور يضيف ابن خلدون رأياً جريئاً آخر يتمثل في نظريته إلى أن (كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منشورهم و منظومهم)

ويضرب مثال حسّان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجربير والفرزدق ويفسر ذلك بأنّ هؤلاء قد سمعوا الطبقة العالية من الكلام في (القرآن والحديث اللّذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما

ويزيد هذا الرّأي الواضح والجريء صراحةً وبيانا فيقول بلا لبس : - وإرتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية - بينما السائد لدى اللغويين والمفسرين والأدباء عموماً أن كلام الجاهليين يعتبر المرجع في اللغة العربية و أساسها بل كثيراً ما يكون الفيصل عند شارحي القرآن والسنة

فيتوضح لنا حينئذ أن رأي ابن خلدون في الشّعْر و اللغة لم يُسلّم فيهما بالتقليد وإنما نظر إليهما نظرة نقدية مخالفة بل معاكسة للسائد و المتفق عليه

و تبدو جرأته النقدية ونظريته الإستشراافية من ناحية أخرى عندما دوّن بعض النماذج من قصائد كانت رائجة في عصره من المشرق والمغرب فسجّل شعر الهلاليين ومعاصريهم وكذلك فصّل القول في شعر

الموشّحات الأندلسية تفصيلا ضمن مقولاته في اللغة تلك التي رأى أنها تتأثر بوضوح بحركة الحياة في المجتمع و تطوراته المختلفة هنا تبرز مواقف ابن خلدون النقدية الثاقبة في اللغة والشعر تلك التي بكثير من الجرأة على ما ترسخ من النظريات القديمة لذلك فإن تمتاز بعض فصول المقدمة تعتبر أحد المداخل الأساسية في تأصيل حركات تطوير الأساليب الأدبية .وبابا واسعا وشرعيا لحركات التجديد الأدبي بما فيه من شعر بدرجة أولى